شعر قديم

أراك عصي الدّمع – أبو فراس الحمداني.

أرَاكَ عَصِيَّ الدّمعِ شِيمَتُكَ الصّبرُ،	أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟
بلى أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ ،	ولكنَّ مثلي لا يذاعُ لهُ سرُّ
إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى	وأذللتُ دمعاً منْ خلائقهُ الكبرُ
معللتي بالوصلِ، والموتُ دونهُ،	إذا مِتّ ظَمْآناً فَلا نَزَل القَطْرُ !
وفيتُ، وفي بعضِ الوفاءِ مذلةٌ	لآنسةٍ في الحي شيمتها الغدرُ
تسائلني: " منْ أنتَ؟ "، وهي عليمةٌ ،	وَهَلْ بِفَتىً مِثْلي عَلى حَالِهِ نُكرُ؟
فقلتُ، كما شاءتْ، وشاءَ لها الهوى:	قَتِيلُكِ! قالَتْ: أيّهُمْ؟ فهُمُ كُثرُ
فقلتُ لها: " لو شئتِ لمْ تتعنتي،	وَلَمْ تَسأَلي عَني وَعِنْدَكِ بي خُبرُ !
فقالتْ: " لقد أزرى بكَ الدهرُ بعدنا!	فقلتُ: "معاذَ اللهِ! بلْ أنت لا الدهرُ،
أسرتُ وما صحبي بعزلٍ، لدى الوغى،	ولا فرسي مهرٌ، ولا ربهُ غمرُ
ولكنْ إذا حمَّ القضاءُ على أمرىءٍ	فليسَ لهُ برٌّ يقيهِ، ولا بحرُ
وقالَ أصيحابي: "الفرارُ أو الردى؟"	فقُلتُ: هُمَا أمرَانِ، أحلاهُما مُرّ
وَلَكِنّني أمْضِي لِمَا لا يَعِيبُني،	وَحَسبُكَ من أمرَينِ خَيرُهما الأسْرُ
يقولونَ لي: "بعتَ السّلامةَ بالرّدى"	فَقُلْتُ: أمَا وَالله، مَا نَالَني خُسْرُ
سَيَذْكُرُني قَوْمي إذا جَدّ جدّهُمْ،	"وفي الليلةِ الظلماءِ ، يفتقدُ البدرُ "
وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا،	لَنَا الصّدرُ، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ

نثر قديم

من سورة هود – القرآن الكريم (49–26)

أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ

ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

شعر حديث

الباب تقرعه الرّياح – السّياب

لبَابُ مَا قَرَعَتْهُ غَيْرُ الرّيحِ في اللَّيْلِ العَمِيقْ

البَابُ مَا قَرَعَتْهُ كَفُّكِ .

أَيْنَ كَفُّكِ وَالطَّرِيقْ

نَاءٍ ؟ بِحَارٌ بَيْنَنَا ، مُدُنٌ ، صَحَارَى مِنْ ظَلاَمْ

الرّيحُ تَحْمِلُ لِي صَدَى القُبْلاَتِ مِنْهَا كَالْحَرِيقْ

مِنْ نَخْلَةٍ يَعْدُو إِلَى أُخْرَى وَيَزْهُو في الغَمَامْ

* * * *

البَابُ مَا قَرَعَتْهُ غَيْرُ الرّيحْ ...

آهِ لَعَلَّ رُوحَاً في الرّيَاحْ

هَامَتْ تَمُرُّ عَلَى الْمَرَافِيءِ أَوْ مَحطَّاتِ القِطَارْ

لِتُسَائِلَ الغُرَبَاءَ عَنّي ، عَن غَرِيبٍ أَمْسِ رَاحْ

يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ ، وَهْوَ اليَوْمَ يَزْحَفُ في انْكِسَارْ .

هِيَ رُوحُ أُمّي هَزَّهَا الحُبُّ العَمِيقْ ،

حُبُّ الأُمُومَةِ فَهْيَ تَبْكِي :

" آهِ يَا وَلَدِي البَعِيدَ عَنِ الدِّيَارْ !

وَيْلاَهُ ! كَيْفَ تَعُودُ وَحْدَكَ لاَ دَلِيلَ وَلاَ رَفِيقْ "

أُمَّاهُ ... لَيْتَكِ لَمْ تَغِيبِي خَلْفَ سُورٍ مِنْ حِجَارْ

لاَ بَابَ فِيهِ لِكَي أَدُقَّ وَلاَ نَوَافِذَ فِي الجِدَارْ !

كَيْفَ انْطَلَقْتِ عَلَى طَرِيقٍ لاَ يَعُودُ السَّائِرُونْ

مِنْ ظُلْمَةٍ صَفْرَاءَ فِيهِ كَأَنَّهَا غَسَقُ البِحَارْ ؟

كَيْفَ انْطَلَقْتِ بِلاَ وَدَاعٍ فَالصِّغَارُ يُوَلْوِلُونْ ،

يَتَرَاكَضُونَ عَلَى الطَّرِيقِ وَيَفْزَعُونَ فَيَرْجِعُونْ

وَيُسَائِلُونَ اللَّيْلَ عَنْكِ وَهُمْ لِعَوْدِكِ فِي انْتِظَارْ ؟

البَابُ تَقْرَعُهُ الرِّيَاحُ لَعَلَّ رُوحاً مِنْكِ زَارْ

هَذَا الغَرِيبُ !! هُوَ ابْنُكِ السَّهْرَانُ يُخْرِقُهُ الحَنِينْ

أُمَّاهُ لَيْتَكِ تَرْجِعِينْ

شَبَحاً . وَكَيْفَ أَخَافُ مِنْهُ وَمَا أَمَّحَتْ رَغْمَ السِّنِينْ

قَسَمَاتُ وَجْهِكِ مِنْ خَيَالِي ؟

أَيْنَ أَنْتِ ؟ أَتَسْمَعِينْ

صَرَخَاتِ قَلْبِي وَهْوَ يَذْبَحُهُ الحَنِينُ إِلَى العِرَاقْ ؟

* * * *

البَابُ تَقْرَعُهُ الرِّيَاحُ تَهُبُّ مِنْ أَبَدِ الفِرَاقْ

حكاية قديمة – صلاح عبد الصّبور

كانَ لهُ أصحابْ
وعاهدوهُ في مساءِ حُزنِه ...
ألا يسلموه للجنودْ
أوْ ينكروهُ عندما
يطلبُهُ السّلطانْ
فواحدٌ أسلمَهُ لقاءَ حَفنةٍ من النّقودْ
ثمّ انتحرْ
وآخرٌ أنكرَهُ ثلاثةً قبلَ انبلاجِ الفجرْ
وبعد أنْ ماتَ اطمأنّت شفتاهْ
ثمّ مَشَى مُكَرّزًا مُفاخِرًا بأنّه رآهْ
وباسمِهِ صَارَ مبارِكًا مُعمَّدا
والآن يا أصْحابْ
أسألكم سؤالَ حائرْ
أيّهُما أحَبَّهُ؟
مَنْ خسرَ الرُّوحَ فأرخصَ الحياهْ؟
أَمْ مَنْ بَنَى لهُ مَعابدًا،
وشادَ باسمِهِ منائرْ؟
قامَتْ على حياهْ
نَجَتْ لأنَها تنكّرت؟
والآن يا أصْحابْ
أيّهُما أحَبَّهُ؟
أيّهُما أحَبَّ نفسَهُ؟
أيّهُما أحَبَّنا؟

نشيد الجبّار – أبو القاسم الشّابي

سَأعيشُ رَغْمَ الدَّاءِ والأَعْداءِ كالنِّسْر فوقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ

أَرْنو إِلَى الشَّمْسِ المضِيئَةِ ، هازِئاً بالسُّحْبِ، والأمطارِ، والأَنواءِ

لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ، ولا أَرى ما في قرار الهَوّةِ السوداءِ...

وأسيرُ في دُنيا المشاعِرِ، حَالماً،غرِداً– وتلكَ سعادةُ الشعراءِ

أُصغِي لموسيقى الحياةِ ، وَوَحْيها وأذيبُ روحَ الكونِ في إنْشائي

وأُصِيخُ للصّوتِ الإلهيّ، الَّذي يُحيي بقلبي مَيّتَ الأصْداءِ

وأقول للقَدَرِ الذي لا يَنْثني عن حرب آمالي بكل بلاءِ:

"–لا يطفىء اللّهبَ المؤجَّجَ في دَمي موجُ الأسى، وعواصفُ الأرْزاءِ

«فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ، فإنَّهُ سيكون مثلَ الصَّخْرة الصَّمَّاءِ»

لا يعرفُ الشكْوى الذَّليلةَ والبُكا، وضَراعَةَ الأَطْفالِ والضُّعَفَاء

«ويعيشُ جبَّارا، يحدِّق دائماً بالفَجْرِ..، بالفجرِ الجميلِ، النَّائي

واملأْ طريقي بالمخاوفِ، والدّجى، وزَوابعِ الأَشْواكِ، والحَصْباءِ

وانشُرْ عليْهِ الرُّعْبَ، وانثُرْ فَوْقَهُ رُجُمَ الرّدى، وصواعِقَ البأساءِ»

«سَأَظلُّ أمشي رغْمَ ذلك، عازفاً قيثارتي، مترنّما بغنائي»

«أمشي بروحٍ حالمٍ، متَوَهّجٍ في ظُلمةِ الآلامِ والأدواءِ»

النّور في قلبِي وبينَ جوانحي فَعَلامَ أخشى السَّيرَ في الظّلماءِ»

قصّة قصيرة

الرّاية والبراءة – مجيد طوبيا

انطلق صفارة الحكم، انتهى الشّوط الأوّل من المباراة، وفريق مدرستنا منهزم بهدف إلى لا شيء... جمعنا المدرّب في حنان أبويٍّ، أشار إلى مئات الطلبة المجتمعين لتشجيعنا حاملين راية المدرسة، قال:

يجب أن تفوزوا، لا تخيّبوا رجاء زملائكم فيكم، أنتم تلعبون في أرضكم.. أومأنا حماسًا.. وهبطت عيناي من رأيك المدرسة إلى جموع التّلاميذ، أبحث عن عيْنيْ "نادية" حبيبتي حتّى وجدتها تلوّح، فابتسمت وامتلأت حميّة.

بدأ الشّوط الثّاني، انتقلت فيه الكرة بين أقدامنا معظم الوقت، من ركلة لأخرى، بسرعة وقوّة في لعب حماسيٍّ انتهى بإحرازنا ثلاثة أهداف وانتصرنا، ولم يعد أمامنا سوى مباراتين نكسبهما ونفوز بالكأس.

بعد تحيّة الزّملاء اتّجهنا لأخذ الحمّام نغسل العرق والغبار. خلعنا ملابسنا وانهمرت المياه فوق أجسادنا منعشة، وتزاحمنا، كلّ لاعب يريد أن يأخذ نصيبه من الرّذاذ البارد، صائحين صاخبين نشوانين بفرحة الفوز، نتبادل تعليقات المرح والنّكات. نتحادث عن تلميذات المدرسة البنات.. نتخاطف الصّابونة، نتناول من فوق الحواجز الفاصلة بين دشٍّ وآخر.. كنّا عراةً مثل آدام ومع ذلك لم يغلق أحدنا بابه خجلًا من الآخرين.

ونحن نجفّف المياه ونرتدي ثيابنا همس "فاروق غرباوي" بنذير الخبر لأوّل مرّة وقال:

عرفت من خالي المفتّش أنّ ناظر مدرستنا قد تمّ نقله.

صحت:

–كيف ينقلونه وقد انتصف العام الدّراسيُّ؟

قال حسين حارس المرمى ممشّطًا شعره في أسى:

–خسارة، رجل طيّب.

قال فاروق غرباوي:

–على نقيض خلفه القادم تمامًا.. حدّثني خالي أنّ النّاظر المنتظر صارم وعنيف وشديد القسوة.. وأنّ شهرته بالوزارة تأديب المدارس المشاغبة.

زرّر منير قميصه:

–لسنا مشاغبين.

أكمل فاروق فرباوي:

– عام واحد في أيّة مدرسة مشاغبة يؤدّبها، ثمّ تنقله الوزارة إلى مدرسة أخرى ليؤدّبها وقد حان دورنا.

قلت في ثقة:

–يؤدّبنا من أجل ماذا؟.. ليأتِ وسوف نرى؟

في الخارج كان في انتظارنا عشرات الطّلبة السّعداء وحامل رايتنا يعيدها إلى ساريتها ويرفعها خفّاقة عالية.. وعن قرب لمحت حبيبتي نادية تتلكّأ في المسير فانسللت خلفها.. سبقتني خارجة إلى شارع النيل وسرت في أثرها.. قبل ابتعادي التفتُّ أتأمّل مدرستي: كبيرة بمبناها فسيحة بملاعبها.. تقف شامخة مطلّة على نيل الصّعيد في اتّساعه، ترفرف رايتها طوال الوقت، نستقبل الشّمس في شروقها وتودّعها في غروبها، هفهافة مع نسم الشّمال.. وسوف نحتفظ لها بالكأس للهام الخامس على التّوالي..

لحقت بنادية ملهوفًا لمحادثتها، لكنّها ابتعدت خجلة.. انحرفت إلى شارع جانبيٍّ خالٍ من المارّةِ ثمّ تلكّأت.. حاذيتها معاتبًا.. اعتذرت كعادتها بخوفها من النّاس.. قد يرانا من يعرف والدها ويخبره فتكون الطّامة ويكون العقاب الوخيم.

قالت:

–تعرف تقاليد الصّعيد.

قلت:

–لا نرتكب فعلًا مشينًا... أحبّك وأريد أن تعرف الدّنيا كلّها أنّني أحبّك ومستعدٌّ أن أواجه العالم كلّه بحبّكِ...

احمرّ وجهها سعادةً، وهنّأتني بالفوز.

وسرنا وقتًا، ثمّ افترقنا بعد أن تعاهدنا على الوفاء وعلى دوام المحبّة مدى العمرِ...

بعد أسبوعٍ تحقّقنا من صدق النّبأ، عندما وقف ناظرنا أمام مكبّر الصّوت يودّعنا بكلماتٍ حارّةٍ معربًا عن حبّه لنا ولبلدتنا، راجيًا للجميع دوام التّوفيق، طالبًا منّا المحافظة على نتائج النّجاح الممتازة الّتي حصلنا عليها طوال سنواتِ إدارته للمدرسةِ..

على الفور سمعنا حكاياتٍ عجيبة عن النّاظر القادم وصرامته.. سمعنا أنّه لا يبتسم أبدًا، لا يعرف الرّحمة أو الشّفقة، كحاكمٍ عسكريٍّ قاسي القلب.. سمعنا أيضًا أنّه غليظ الكفِّ، ضخم الكرش... قلتُ:

–سوف نفرغ كرشه من انتفاخه.

قال فاروق غرباوي نقلًا عن خاله المفتّش:

–النّاظر القادم عقابه الوحيد الّذي يؤمن به هو فصل من لا يعجبه فصلًا نهائيًّا من كافّة المدارس، يعني ضياع المستقبل ضياعًا كاملًا، والعياذ بالله!

ضحكنا سخريّةً.. رغم ارتفاع القهقهات شعرت بها جافّةً مرعوشةً غير واثقةٍ.

وعلى الفور تملّكني انقباضٌ مبهمٌ عصر قلبي حزنًا، ظلّ مسيطرًا عليّ ولم يزايلْني إلّا عندما لاقيتُ نادية، حيث عاودتني البهجةُ من دفءِ صوتها الحاني، ومن اندفاعة الدّماء إلى وجهي مع تلامس كفّها بكفّي.. وسرنا حتّى بدت لنا أطلال الفراعنة القريبة، حيث هناك كباش الغجر وماعزهم ما إن تشبع من الكلإ حتّى تأخذ تتناطح وتتقافز حول تمثال الفرعون العتيد...

مضى أسبوع آخر وسمعنا أنّ النّاظر الموعود قد وصل بالفعل.. انتظرنا أن نراه، ومرّ اليوم كلّه، ومرّ يومان آخران من غير أن يلمحه أحدنا.. ظلّ حبيس مكتبه، يأتي قبلنا وينصرف بعدنا.. حتّى شككنا في صحّة نبإ وصوله، لولا أنّ المدرّسين أكّدوا لنا وجوده.

وطوال هذه الأيّام أطلق الطّلبة شائعاتٍ غريبة عن أوصافه. زعم أمين، أغبى تلاميذ فصلنا أنّه رآه، ووصفه قائلًا: جسدٌ طويلٌ بكرشٍ ضخمٍ وقفًا عريضٍ.

لكنّ منير نقضه في ثقةٍ:

–بل قزمٌ سمينٌ لا عنق له، بعينين جاحظتين.

وفي يوم التّمرين وبعد أن تدرّبنا، توجّهنا إلى الحمّام ودخلنا تحت المياه، أعلن حسين حارس المرمى بأنّه رأى النّاظر رؤية العين، صاح: هو باختصارٍ شديدٍ يشبه الغولَ!

وعلى الفور راح كلّ واحدٍ منّا يتخيّله حسبما كان يتخيّل الغول في حكاياتِ طفولتهِ.

مع بدايَةِ أُسبوعِهِ الثّاني، فُوجئْتُ مع عدَدٍ كبيرٍ من التّلاميذِ ببوّابَةِ المَدرسَةِ موصدَة، أُغلِقَت قبلَ بدءِ الدّراسةِ بنِصفِ ساعَةٍ ودونَ تنبيهٍ سابِقٍ ... تَسَكَّعْنَا في الشَّوارِعِ عِدَّةَ ساعاتٍ قبلَ أن نتوَجَّهَ إلى بيوتِنا..

وحرِصْنا في اليومِ التّالي على التَّوجُّهِ مُبكّرًا ... بِدافِعِ الرَّغبَةِ لرُؤيتِه.. وربّما بدافِعِ الخوْفِ من صيتِهِ؟.. أنا شخصيًّا كنتُ شَغوفًا لمعرفَةِ" مِن أجلِ أيَّةِ أفعالٍ يريدُ تأديبَنا.. وكيف سيفعلُ بنا ذلكَ".

دقَّ النّاقوسُ، فأُغلِقَت البوّابَةُ الحديديَّةُ على الفَور، وبدأْنا نتوجَّهُ كعادَتِنا إلى الفُصولِ لكنَّنا فوجِئْنا بمُدَرّسِي الحِصَصِ الأُولى.. يمنَعُونَنا وبأيديهِم – على غَيرِ العادةِ – عِصِيٌّ قصيرةٌ، وَيطلُبُون منّا الوقوفَ في صُفوفٍ..

ولاحَظْنا وُجودَ خُطوطٍ جِيريَّةٍ على الأرضِ لم تكُن موجودةً من قبل، خَطّان لكلِّ فصلٍ يقِفُ تلاميذُهُ بينَهُما!

قاوَمْنا في البدايَةِ بسبَبِ عدَم التَّعَوُّدِ، وبرغبَةٍ دفينَةٍ في التّمرُّدِ، لكنَّ العِصِيَّ في أيْدِي المُدَرّسين أجبَرَتْنا على الانصِياعِ، فوقَفْنا كَفِرَقِ الجَيشِ في صُفوفٍ مُنتَظَمَةٍ ووجوهنُا جميعًا صوْبَ الدَّرَجِ المُؤدّي إلى غُرفةِ الإدارةِ.. ومن هناك، من عندِ أعلى الدَّرَجِ ظَهَرَ النّاظِرُ المُخيفُ.. فَسَادَ صمتٌ كاملٌ وشامِلٌ رَهبةً وفُضولاً.. وكانَ مظهرُهُ شَتاتًا ممّا سمِعْنا عنه، مُتوسِّطَ الطّولِ ضخمَ البدَنِ مُنتفِخَ البطنِ وبِلا عُنُقٍ، وبلا عصًا في يدِهِ ووجهٌ مُستديرٌ متجهّمٌ.

لاحظنا أنّ وجوه المدرّسين وعيونهم لا تفارقه في انتظار أوامره.. في لحظات كان توتّرهم قد انتقل إلينا، فقمنا مأخوذين وعيوننا أيضًا لا تفارق الوجه المتجهّم الصّامت. ولاحظت أنّ راية المدرسة منكّسةٌ عند أسفل السّارية.

فجأة وقع حادث خارق، على حين بغتة انطلق من الصّفوف الخلفيّة نواحٌ هزليٌّ ضاعف من سخريّة الصّمت الهائل الّذي كنّا فيه.. وعلى الفور ضجّت المدرسة بضحكاتٍ صاخبةٍ، ضحكاتٍ عصبيّةٍ مبالغٍ فيها، وتعرّجت الصّفوف وكادت تنفلت.

بوغِتَ الأساتذة لبرهةٍ، ثمّ سرعان ما تولّت عصيّهم إسكاتنا وإعادتنا إلى الانضباط مرّة ثانية في الصّفوف وإلى حالة الصّمت المطبق.. فمكثنا شامتين نترقّب ردَّ فعل الوجه المتجهّمِ.

لم يخرج عن جموده، ظلّ في هدوئه المقيت، ثمّ همس في أذن وكيلِ المدرسةِ واستدارَ داخلًا غرفتهُ.. ثوانٍ وعرفنا مضمون همسته، إذ ظللنا في أماكننا، مذنبين طوال اليوم الدّراسيّ.. والمدرّسون يتبادلون في مراقبتنا في حزمٍ وهمّةٍ إلى أن انصرفنا إلى بيوتنا مهدودي الحيْل.

اليوم الثّالث: وقفنا طوابير بطريقة أسرع، وخرج البدين الضّخم بوجهه المتجهّم، والرّاية منكّسة مثل اليوم السّابق، ممّا أدهشني: لماذا ينكّسها وهي الّتي لم تُنكَّسْ في يومٍ من الأيّام..؟

تنبّهْنا على وكيل المدرسة ينادي عددًا من الأسماء، خرج أصحابها مدعورين، ليصطفّوا، واحدًا بعدَ الآخرِ تحت الرّاية المنكّسةِ، حتّى وصل عددهم إلى عشرةٍ.. وعندما سمعْنا النّبأ الصّاعق، نبأ فصلهم من الدّراسة فصلًا نهائيًّا وبلا رجعة.. ألْجَمَتْنا المفاجأةُ، وانكمش معظمنا واجمين. ونحن نراهم يخرجون متباطئين في انكسارٍ وعدم تصديقٍ.. العجيب أنّ هؤلاء العشرةُ بالذّات كانوا مسؤولين بدرجةٍ كبيرةٍ عن صياح اليوم السّابق، فكيف عرف النّاظر الجديدُ؟.. لا بدَّ أنّ بيننا وُشاةٌ أبلغوهُ.. فمن يكونون..؟

بعد إغلاق البوّابة الحديدّية من ورائهم أومأ النّاظر إلى مدرّس الألعاب بإيماءةٍ خفيفةٍ فإذا به ينتفض مُصدِرًا صوتًا كصوتِ مدرّبي الجيشِ طالبًا منّا تحيّةَ الرّاية الّتي أخذ يرفعها أمام أعيننا..

تابعتُها بنظري وهي تُرفعُ تدريجيًّا وفي بطءٍ، رأيتها متهدّلة والهواء ساكنٌ، لا ترفرف مثلما عوّدتْنا.. شعرتُ بغصّةٍ تخنقني، وبدموعٍ ساخنةٍ تملأ عينيَّ فشاهدتُ هذه الرّايةَ متموّجة متآكلة الحوافِّ.. وللتّوّ أحسستُ بها غريبة عنّي.. أثناءَ الحصص تشاورنا فيما يمكن أن نفعله لإعادةِ زملائنا المفصولين، لكنّ المدرّسين أرهبونا ونصحونا بالصّمت– ولاحظتُ أنّ معظمهم سعداء بهذا الرّعب المباغت، خاصّة غير الأكفاءِ منهم، إذ كنّا لا نحترمهم لعدم استفادتنا من حصصهم– ورغم ذلك حاولتْ حفنةٌ من التّلاميذ التّدخّل فكان نصيبهم الفصل نهائيًّا أيضًا.. ودون نقاشٍ ودون قبول أيّة وساطة أو ترحّم.

أخيرًا استتبّ نظام النّاظر، وتعوّدنا على الرّاية منكّسة كلّ صباح وتعوّدنا على رفعها مع ظهور الوجه المتجهّم. أصبح ارتفاعها قرينًا بظهوره... ويومًا بعد يومٍ بدأتُ أمقتُ هذه الرّايةَ، وهي الّتي لعبنا مبارياتنا دائمًا تحت لوائها وانتصرنا بها. لكنّها كانت رمزنا والآنَ صارت رمزَهُ.. ولهذا تجاهلنا أخذها معنا في المباراة التّالية قبل النّهائيّة..

في هذه المباراة ما إن نزلت إلى الملعب مع باقي الفريق حتّى أصابتنا الدّهشة، كان عدد المشجّعين من زملائنا أقلّ منه في أيّ وقتٍ مضى.. ومع ذلك بذلنا كلّ جهدِنا كي ننتصر، ثمّ بذلنا كلّ جهدنا كي نتعادل ومع قرب نهاية المباراة صار كلّ طموحنا ألّا ننهزِمَ... وخَرَجنا متعادلين أنام فريقٍ أقلّ من مستوانا بكثير...

وفي المباراة الأخيرة، مباراة الكأس، كنّا جميعًا متوتّرين.. قبلَها جمَعَنا النّاظر وأمرَنا بالفوز وأمرَنا بأخذ الرّاية معنا، وخرجنا من عنده صامتين منكسرين...

ولهذا نزلنا الملعب خائفين، بأقلّ عددٍ من المشجّعين، والرّاية مرفوعةٌ بلا حماسٍ..

ولعبنا بلا حَمِيَّةٍ، أكادُ أقولُ إنّ زملاء لي تعمّدوا الإهمالَ، أنا شخصيًّا أضعتُ هدفًا أكيدًا، لا أدري كيف حدث هذا؟.. لا أذكرُ إن كانت مصادفةً أم تعمّدًا.

الّذي أذكره جيّدًا أنّنا عندما توجّهنا أخذِ الحمّامِ– بعد هزيمتنا، وبعد ضياع الكأس منّا لأوّل مرّةٍ منذُ سنواتٍ.. كانت حركتُنا بطيئةً صامتةً، وكان الحزنُ يصبغُ نظراتنا ويلجِمُ ألسنتَنا، فانزوى كلّ لاعبٍ مغلقًا بابه على نفسه، خالعًا ملابسه بعيدًا عن أعين الزّملاءِ، مقهورًا خجلانَ مزيلًا تحت رذاذ الدُشّ آثار المباراةِ عن جسدِهِ.

ارتدينا ملابسنا دون اهتمامٍ، وانصرفنا فرادى، وعندما خرجتُ أنا وجدتُ نادية تتلكّأ في المسير، سبقتني إلى الشّارع على أملِ أن ألحقَ بها كعادتي.. لكنّي لم أفعلْ.